دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 34، العدد 3، 2007

ظاهرة الخوف في شعر الفرزدق

أمل طاهر نصير*

ملخـص

تناولت في هذا البحث ظاهرة الخوف في شعر الشاعر الأموي الفرزدق، فعرضت لها من خلال أربعة محاور، أما المحور الأول فقد عرضت فيه لخوف الشاعر من السلطة السياسية، وأما المحور الثاني، فقد جعلته للخوف من الزمن، وفي المحور الثالث عرضت للتخويف الذي مارسه الفرزدق ضد الآخرين، وأخيرا المحور الرابع، جعلته لآليات مقاومة الخوف عنده.

عاش الفرزدق حالة واضحة من الخوف في مراحل حياته المختلفة؛ فقد عانى الخوف من السلطة السياسية في ظل سياسة تكميم الأفواه، ومنع حرية الرأي أوالمطالبة بالحقوق التي مارسها بعض رموز السلطة السياسية. لكن الشاعر الفرزدق بالمقابل مارس نوعا آخر من الترهيب الثقافي باعتماده سياسة الهجاء، وتوظيف الفن الشعري في تضخيم الذات، وإلغاء الآخر والاستعلاء عليه وتهديده.

أما الخوف من الزمن، فقد تمثّل بشكل خاص في الشيب، والهرم، والموت، إلا أن خوفه من الموت كان الأقل أهمية، بل الأضعف في حياته، وقد بدا الفرزدق غير منشغل كثيرا به مثلما كان منشغلا بالخوف من السلطة السياسية، ولعل ضعف عقيدته، وانشغاله بالأمور القبلية من الفخر بقبيلته والدفاع عنها، وهجاء القبائل الأخرى جعلته يهتم بما هو متعلق بها أكثر من أي أمر آخر.

لم يقف الفرزدق إزاء خوفه صامتا، بل مارس آليات مختلفة لمقاومته من أهمها: الهرب من الخصم، ومن ثم الاستعلاء عليه بالفخر بنفسه، وهجاء خصمه وتحديه، وفي كثير من الأحيان كان يبادر إلى مدح الخصم والاعتذار له، كما قاوم الخوف من الزمن ببعث الماضي الجميل، وإعلان التوبة على ما اقترف من ذنوب، وإظهار الندم عليها.

الكلمـات الدالـة: الشعر العربي، العصر الأموي، ثقافة الخوف، الفرزدق.

المقدمــة

الخوف عند الفرزدق ظاهرة بارزة في شعره، بل في شخصيته، حتى قيل فيه: "أجبن من صافر"[1]، ولاسيما خوفه من السلطة السياسية، وهو يحتوي في بنيته على أمور كثيرة متعلّقة بنظرة الشاعر العربي القديم إلى الحياة، وإلى ذاته، وعلاقته بالآخر، وهي مكونات ثقافية للمجتمع العربي في تلك الحقبة تحتاج إلى دراسة تُبين طبيعة الموضوعات التي يمكن أن تنتجها في علاقاتها المختلفة، مما يكشف في النهاية صورة الوعي الإنساني لجوهر الحياة، كما يصور في الوقت نفسه كيفية تعامل الفرزدق مع ظروف الحياة المختلفة من خلال الفن الشعري الجميل.

تكشف القراءة لشعر الفرزدق عن أن ظاهرة الخوف كانت تشكّل نظاما له فاعلية كبيرة في تشكيل رؤيا الشاعر لمجالات الحياة المختلفة التي يعيشها، وقلقه إزاء صراع الإنسان مع الآخر، ومع الزمن. إن كلمة الخوف في شعر الفرزدق تكشف عن كثير من الأمور التي كانت مسيطرة على فكر الشاعر وثقافته، ومن ثم حياته وحياة الآخرين من حوله.

عاش الفرزدق في العصر الأموي، فعايش المشهد السياسي القائم على سياسة التخويف والترهيب من قبل بعض أفراد السلطة؛ من حيث الاختلاف حول الخلافة، وأسلوب الموت والقمع هو أسلوب بعض السياسيين في التعامل مع الآخر، ولعل مذبحة كربلاء، وجبروت الحجاج في العراق كانا من أقرب الأمثلة على ذلك، إن جملة الحجاج التي ما زالت تتردد إلى يوم الناس هذا تختصر كثيرا من صورة المشهد السياسي آنذاك حينما قال مخاطبا أهل العراق: "أما وا إني لأحمل الشر محمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوسا قد أينعت، وحان قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى..."[2]

لقد برزت ظاهرة الخوف عند الفرزدق بشكل ملحوظ نتيجة لملاحقة الولاة له بسبب تعرضه للآخرين بالهجاء ومس

* كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن. تاريخ استلام البحث 2006/5/11، وتاريخ قبوله 2006/8/22.

أعراضهم، أو التطاول على السلطان، وكذلك لمواقفه القبلية المتعصبة في كثير من الأحيان، ولكنه كان يقاومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

سأقوم في هذا البحث بدراسة ظاهرة الخوف عند الفرزدق باعتبارها ظاهرة إنسانية، وذلك من خلال المحاور الأربعة الآتية: الخوف من السلطة السياسية، ثم الخوف من الزمن، وبعدها الخوف من ألسنة الشعراء، وأخيرا آليات مقاومة الخوف عنده.

أولا- الخوف من السلطة السياسية

سيطر الخوف من السلطة السياسية على حياة الفرزدق وشعره بصورة بارزة؛ فكانت هذه السلطة السبب الرئيسي وراء حالة الخوف الكبيرة التي عاشها في حياته، لقد مارس بعض أفرادها ضغوطهم على الآخر باتجاهات متعددة من أبرزها: سياسة تكميم الأفواه، ومنع المطالبة بالحقوق؛ فقد روي أن الحتات بن يزيد المجاشعي وفد على معاوية في وفد بني تميم، فمات في طريق عودته، وكان معاوية قد أمر له بمال، فمنعه من ورثته، فغضب الفرزدق غضبا شديدا، وقال قصيدته التي بين فيها حقّ ورثة عمه الحتات في ميراثه مبرزا الثقافة الدينية والاجتماعية التي كانت شائعة في ذلك الزمان، وما تعارفه الناس من حقوق الإرث.[3]

لقد طالب الفرزدق من معاوية إعادة ميراث الحتات إلى أصحابه، وقد نجح في ذلك، ولكن القصيدة أغضبت زياد بن أبي سفيان والي العراق موطن الشاعر آنذاك، وأحفظته عليه[4]؛ لأنه رأى فيها تطاولا غير مقبول على السلطان في ظل تفرد السلطان وتميزه، وسياسة منع حرية الرأي أو المجاهرة به، فاستغلّ زياد تعرض الفرزدق للناس بالهجاء؛ ولاسيما هجاءه للأشْهب بن رميلة النَهشَلي وقومه بني نَهشَل وبني فُقَيم، فخرج الفرزدق خائفا مطاردا يتنقل من مكان إلى آخر إلى أن حطّت به الرحال في الحجاز، وقد تحاماه الناس خوفا من زياد، وبقي مطاردا إلى أن مات الأخير.[5]

لقد نظم الفرزدق في محنة الخوف هذه أشعارا كثيرة وصف فيها نفسه التائهة، وخوفه الكبير خاصة أن تجربته كانت مريرة مع تنكّر أصدقائه ومعارفه له، ولكن هذه المحنة جعلته أكثر فهما لأعماق النفس البشرية، وما يمكن أن تكون عليه من تغير واضطراب حينما تكون خائفة من السلطان أو ممالئة له وطامعة فيه. قال:

أَتاني وعيد من زياد فَلَم أَنَـ ـم
وسيلُ اللوى دوني وهضب التهايِمِ
فَبِت كأني مشْعر خَيبريـ ـ ـة
سرتْ في عظَامي أَو دماء الأراقِمِ
زياد بن حربٍ لَو أَظُنك تَاركي
وذَا الضغْنِ قَد خَشمتَه غَير ظَالِمِ[6]

يقر الفرزدق في هذه الأبيات بخوفه من زياد، ويبين عن قلقه الذي جعله مسهدا، وكأنه مريض حمى أو ملدوغ أفعى، فهو يعاني غربة مكانية كبيرة اضطر بسببها إلى ترك وطنه وأهله هربا من زياد.إن هذا الشعر يذكرنا بشعر النابغة الذبياني في خوفه من النعمان بن المنذر، بل إن شكل الشعر يشبه شعر النابغة نفسه؛ إذ فيه تضمين للأساليب، ولبعض الألفاظ أيضا.[7]

ويبدو قلق الشاعر الكبير واعترافه بالخوف من سلطة زياد في قوله:

رأَيتُك من تَغْضب عليه من امرِىء
ولَو كان ذَا رهط يبِتْ غَير نَائِـ ـمِ[8]

إن هذا الشعر يشير إلى المدى الذي بلغته قوة السلطان في مقابل قوة القبيلة في هذا العصر، ومدى تطور العقل العربي في قبول نظام الدولة بدلا من نظام القبيلة سواء أكان برضى واقتناع منه أم كان مكرها؛ فالدولة الأموية تعد اختبارا حقيقيا لمدى إثبات سلطة الدولة بدلا من سلطة القبيلة؛ من هنا نجد الفرزدق المعتز بقبيلته المتعالي بقوتها يرتعد من زياد والي العراق، فهو لا يستطيع النوم خوفا ورعدة.

كان لخوف الفرزدق من زياد أثر كبير في حياته؛ إذ لم ينسه أبدا، فقد كان يتذكّره بين الحين والآخر في مراحل حياته المختلفة، من ذلك ما قاله في مديحه لهشام بن عبد الملك يذكر ملاحقة خالد القسري له بسبب هجاء قاله فيه:

ولَو كُنْتُ أَخْشَى خَالِداً أَن يروعني
لَطرتُ بِواف رِيشُه غَير جـ ـادف
كَما طرتُ من مصرِي زِياد وإنه
لَتَصرِفُ لِي أَنْيابه بِالمتَالِـ ـف[9]

وكيف له أن ينساه وقد بلغ منه الخوف كل مبلغ، وأثّر في حياته وسلوكه تأثيرا كبيرا؟! فقد أصبح مثلا يقيس به خوفه من الآخرين، ولعل البيت الآتي يوحي بمدى الفزع الذي بلغه بخوفه من زياد. قال:

إذا ذَكَرتْ نَفْسي زِياداً تَكَمشَـ ـتْ
من الْخَوف أَحشَائي وشَابتْ مفَارِقي[10]

ولعل في وصفه الأسد بأنه أهون من زياد، وأقل شراسة منه، واعترافه بالجبن جراء الموقف يؤكد ذلك. قال حينما

التقى أسدا واصفا لقاءه ذاك:

ما كُنْتُ أحسبني جباناً قبلَ ما
لاقيْتُ ليلة جانب الأنْهـــار
ليثاً كأن على يديه رحالـــةً
جسد البراثن مؤجد الأظْفَـار
لما سمعتُ له زمازم أقْبلَـتْ
نَفْسي إلي وقُلْتُ أين فـــراري
فَضربتُ جِروتَها وقُلْتُ لها اصبري
وشَددتُ في ضيق المقَـام إزاري
فَلأنْتَ أهون من زياد جانـباً
فاذْهب إليك مخَرم السفّـــار[11]

إن هذه الحادثة تكشف عن رغبة داخلية في مواجهة الشاعر للسلطة السياسية ممثلة بوالي العراق زياد بن أبي سفيان، والتخلّص منه، والانتصار على كل مخاوفه التي عاش في ظلها سنوات صعبة وشاقة، وذلك من خلال رغبته بمواجهة الأسد. إنها حالة من حالات مواجهة الخوف عند الشاعر بإقناع نفسه بأنه قادر على مواجهته، والتخلّص منه رغم أن مواجهته لزياد كانت أقسى وأصعب، وكل هذا يؤكد المدى الذي وصلت إليه قوة السلطة السياسية في هذا العصر.

يذكر أن زيادا لما سمع هذه الأبيات رقّ له، وقال: لو جاءني لحبيته وأكرمته وأمنته، فبلغ ذلك الفرزدق، فقال قصيدته التي بدأها بتذكّر صاحبته ظمياء وتشوقه لها، ومنها قوله:

تَذَكر هذا القَلْب من شَوقه ذكْـرا،
تَذَكّر شَوقاً لَيس نَاسيه عصـــرا
تَذَكر ظَمياء الّتي لَيس نَاسيـاً
وإن كان أدنَى عهدها حججاً عشْرا
وما مغْزِلٌ بالغَورِ غَورِ تهامة
تَرعى أراكاً من مخَارمها نَضـرا
من العوج حواء المدامع تَرعوي
إلى رشَأٍ طفْلٍ تَخَالُ به فَتْـــرا
أصـابتْ بأعلى الولْولان حبالَـةً،
فَما استَمسكَتْ حتى حسبن بها نَفرا
بأحسن من ظَمياء يوم لَقيتُهـا،
ولاَ مزنَةٌ راحتْ غَمامتها قَصـرا
وكَم دونَها من عاطف في صريمة
وأعداء قَومٍ ينْذُرون دمـي نَـذْرا
إذا أوعدوني عنْد ظَمياء ساءهـا
وعيدي وقَالَتْ: لا تقولوا له هجرا[12]

رغم أن قصة الفرزدق مع ظمياء معروفة تاريخيا[13]، إلا أن ذكر الفرزدق لها في هذه القصيدة ربما كان رمزا للحياة الهانئة الوادعة التي عاشها الشاعر في الماضي قرب أهله وأحبابه في موطنه العراق، وقد أصبح الآن محروما منها في منفاه في الحجاز، ولعل التشبيه الدائري[14] الذي اختاره هنا والذي شبه فيه صاحبته ظمياء بالظبية العطوف على ولدها وما تبع ذلك من تأكيد صفة الأمومة عندها، وما له علاقة بها من صفات الحنو والعطف والأمان في حضن الأسرة (مغزل) هي جميعا أمور كاشفة عن حالة الحرمان والفقد التي كان يعيشها في غربته، ولعل اختيار الاسم (ظمياء) وتكراره يؤكد هذه الحالة، وما رغبة الشاعر في تصوير موقف ظمياء المتعاطف معه إلا استمرار لموقفه من المرأة في جلّ شعره، إذ جعلها معجبة به تبادله الحب، وتفضله على غيره من الرجال[15]، ورغم أن هذا الأسلوب في الحديث عن علاقته بالمرأة يمكن أن يفسر في باب التعويض النفسي عن رفض المرأة له لدمامته وسوء أخلاقه كما تذكر بعض المصادر [16]، إلا أنه من جهة أخرى إشعار بثقافة جديدة بدأنا من خلالها نسمع صوت المرأة في الشعر في العصر الأموي أكثر من أي وقت مضى. والفرزدق واحد من هؤلاء الشعراء الذين أسمعونا رأيها وصوتها من خلال شعره سواء أكان في قصصه مع صاحباته أم مع زوجاته، ولاسيما النوار. يتابع الشاعر أبياته السابقة قائلا:

دعاني زياد للعطَاء ولَم أكُن
لِأقْربه ما ساقَ ذُو حسبٍ وفْـرا
وعنْد زياد لَو يريد عطَاءهـم
رجالٌ كثير قَد يرى بهم فَقْــرا
قُعود لَدى الأبوابِ طُلاب حاجة
عوانٍ من الْحاجات أو حاجة بكرا
فَلَما خَشيتُ أن يكُون عطَـاؤه
أداهم سوداً أو محدرجةً سمـرا
فَزِعتُ إلى حرف أضر بِنَيها
سرى الليل واستعراضها البلَد القَفْرا[17]

بلغ خوف الشاعر من زياد مبلغا كبيرا حتى أنه لم يكن مصدقا وعوده، أو مطمئنا لها بحال من الأحوال؛ لأنه يعلم أنها وعود كاذبة، بل كان يراها حيلة من زياد للإيقاع به. إن مثل هذا الشعر كشف عن عدم ثقة المحكوم بالحاكم حتى لو أعطاه الأمان!

بعد ذلك لجأ الشاعر إلى ناقته، فجعلها وسيلة العبور والنجاة كما كانت عند شعراء سابقين أو معاصرين له، فهرع إليها لتخلّصه من زياد. قال:

فَزِعتُ إلى حرف أَضر بِنَيهـ ـ ـا
سرى الليل واستعراضها البلد القَفَرا
تَنَفس من بهوٍ من الجوف واسـ ـعٍ
إذا مد حيزوماً شَراسيفَها الضـ ـفْرا
تَراها إذَا صام النهار كأنمـ ـ ـ ـا
تُسامي فَنيقاً أو تُخَالِسه خَطْـ ـ ـ ـرا
تَخُوض إذا صاح الصدى بعد هجعة
من الليل ملْتَجاً غَياطلُه خَضـ ـرا
وكم من عدو كاشحٍ قَد تَجـ ـاوزتْ
مخَافَتَه حتى يكُون لَها جسـ ـ ـرا
يؤم بِها الموماةَ من لَن تَرى لَـ ـه
إلى ابنِ أبي سفيان جاهاً ولاعذْرا[18]

كانت الناقة أداة ثقافية فاعلة في الشعر العربي القديم؛ فهي الأمل في وصول الشاعر إلى غاياته وتحقيق طموحاته، وهي المعين المخاص له في قطع الصحراء، فهي الأمل الحقيقي في إحداث التغيير، وبعث الحياة، إذ يتحدى الشاعر بفعلها خوفه من زياد الذي دفعه إلى قطع الصحراء المقفرة، وزمنها الليلي الطويل الحالك السواد، سعيا للانتصار على خوفه، وقد وصفها بأنها ضامرة قليلة اللحم، وهذا يزيد من سرعتها ونشاطها، فهي ممثّلة لذات الشاعر، وهي مجسدة للعزيمة والاهتداء، فهي تعرف كيف تلتجئ من الموت بشجرة الحياة، وتجد طريقها إلى غايتها،" وأخيرا فهي تحمل العابر الطقوسي إلى هدفه؛ أي إلى الرخاء والجديد والدائم"[19]، فالشاعر أضحى بثقافته المترجمة عملا بالرحلة على ظهر الناقة قادرا على الهرب، ومن ثم النجاة بعدما يئس من رضى زياد عنه، "وهو يتخذ من الناقة موضوعة قناعية لتمرير ثقافته الذاتية حول جملة من المفاهيم التي تصطدم بها الذات الإنسانية في هذه الحياة".[20]

لم تكن قصة الشاعر مع زياد بن أبي سفيان هي الوحيدة التي أظهرت مدى ما وصل إليه الخوف من السلطة السياسية الذي كان الناس يعيشونه في العصر الأموي - ومنهم الشاعر- ذاك الخوف الذي كان مخيما على حياتهم في مناسبات عديدة، فقد غضب هشام بن عبد الملك على الشاعر، وأمر بحبسه بين مكة والمدينة؛ لأنه اعترف بمعرفته لزين العابدين بن علي، ومدحه على مسمع منه في قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله:

هذا الذي تَعرِفُ البطحاء وطْأَتَـ ـه
والبيتُ يعرِفُه والحل والحـ ـرم
هذا ابن خَيرِ عباد ا ـ كُلهـ ـ ـم
هذا التَقي النَقي الطاهر العلم[21]

إن عدم القبول بالرأي الآخر هو الذي دفع الخليفة إلى سجن الفرزدق لغير ذنب اقترفه سوى اعترافه بمعرفته لزين العابدين ومدحه إياه، وربما كان كذلك، السبب الحقيقي وراء إخراج مروان بن الحكم له من المدينة في محنة خوفه من زياد بعدما أصبح أميرا عليها بعد سعيد بن العاص، إذ يذكر أنه كان ساخطا عليه لتفضيله سعيدا عليه وعلى بني أمية جميعا، لما كان بينهما من تنافس، فاستغل غزله بالقيان، وطرده من المدينة.[22] إنه رفض سماع الرأي المخالف، ورغبة السلطة السياسية في جعل الآخرين يرون ما ترى، ويتبعونها في كل شيء سواء أكان صائبا أم لا.

أما الحجاج، فقد كان ترهيبه للناس عنوانا لإثارة الخوف والفزع في العراق، بل في أرجاء الدولة الأموية كلها في هذا العصر، بل ربما امتد إلى عصور تالية، فقد كان مثلا يتذكّره الناس عند رؤيتهم أو سماعهم عن الطغاة والمستبدين، كما كان مضرب مثل عند الفرزدق نفسه، وقد قال فيه شعرا كثيرا يبدو في مجمله أنه كان على علاقة طيبة معه، سواء أكان في مدحه إياه في حياته، أم في رثائه له، ولكن هذا لم يمنعه من وصف جبروته، وفرض هيمنته السياسية بواسطة سياسة التخويف والترهيب، بل إن الخوف ينتشر في جنبات شعره المدحي فيه؛ لذا سرعان ما أمطره بوابل هجائه بعد وفاته[23]، وحينما سئل عن ذلك قال عبارة تكشف عن حالة العلاقة بين السلطة السياسية والرعية، ولاسيما الشعراء منهم: "إنما نكون مع القوم ما كان ا معهم، فإذا تركهم من يده تركناهم".[24] ومما قاله في وصف الحجاج مبينا المدى الذي وصلت إليه سياسته في ترهيب الناس وتخويفهم:

إذا وعد الحجاج أو هم أَسقَطَـ ـتْ
مخَافَتُه ما في بطونِ الحوامـ ـل
له صولَةٌ من يوقَها أن تُصيبـ ـه
يعشْ وهو منْها مستَخَف الخَصائِل[25]

لقد بدا الفرزدق يرتعد خوفا من الحجاج حتى في مديحه له، الذي ركّز فيه على جانب تخويفه وترهيبه للناس أكثر من أي أمر آخر، ولعلّ الذي دفعه إلى مدحه هو خوفه منه ومن جبروته، فرغب في دفع غائلته عنه، وضمان جانبه، ولاسيما أن خصمه جريرا قد سارع هو الآخر إلى مدحه، إضافة إلى رغبته في عطاياه الكثيرة، إذ كان الحجاج معطاء للشعراء كريما معهم. ومما قاله فيه وهو يرتعد خوفا واصفا الموت بأنه أهون منه:

وقَد خفْتُ حتى لَو أرى الموتَ مقْبِلاً
لِيأْخُذَني، والموتُ يكْره زائِـ ـره
لَكان من الحجاج أَهون روعـ ـ ـةً
إذا هو أَغْضى وهو سامٍ نَواظره

أدب ودوني سير شهرٍ كأنني
أراكَ، وليلٌ مستحير عساكره
ذكرتُ الذي بيني وبينكَ بعدما
رمى بي من نجدي تهامة غائره
فأيقنتُ أني إن نأيتُك لم يرد
بي النأي إلا كل شيء أحاذره
وأن لو ركبتُ الريح ثم طلبتني،
لكنتُ كشيء أدركته مقادره
فلم أر شيئاً غير إقبال ناقتي
إليك وأمري قد تعيتْ مصادره
وما خافَ شيء لم يمتْ من مخافة
كما قد أسرتْ في فؤادي ضمائره
أخافُ من الحجاجِ سورةَ مخدرٍ
ضوارب بالأعناق منه خوادره[26]

يوضح الفرزدق في هذه الأبيات سبب تقربه من الحجاج رغم حالة الخوف الشديدة التي يعيشها في ظله، فهو غير آمن على نفسه وهو بعيد عنه، والحال معه ليس كالحال مع غيره، فهو يعرف سطوته وجبروته وقدرته على القبض عليه، فهو قدره الذي لا يستطيع الهرب منه، وبالتالي فلا خيار له إلا التقرب منه، والانضواء تحت لواء حاشيته، ومدحه. إن تكرار الشاعر لكلمة الخوف ومشتقاتها ومعانيها المختلفة في هذه الأبيات، بل في القصيدة كاملة يشير إلى المدى الذي بلغه الشاعر في خوفه من الحجاج، كما يشير إلى أن مدحه له كان من باب الخوف والفزع من عقابه بالدرجة الأولى الذي صوره بقوله:

إذا ما بدا الحجاج للناس أطرقوا،
وأسكتَ منهم كلّ من كان ينطقُ
فما هو إلا بائلٌ من مخافة،
وآخر منهم ظل بالريق يشرقُ
وطارتْ قلوب الناس شرقاً ومغرباً،
فما الناس إلا مهجس أو ملثّقُ[27]

تصلح هذه الأبيات أن تكون لوحة فنية رسمها الشاعر للرعية الخائفة، بل المذعورة الفزعة من السياسي المتجبر، فهم بين مطرق ومخرس، وبائل على نفسه، أو شارق بريقه، أما القلوب، فقد جعلها متطايرة متناثرة شرقا وغربا، إنه يجسد صورة السياسي المرعب لرعيته، فيجعلها في قلق ووسواس دائم. قال على لسان النوار زوجته تنصحه بالابتعاد عن الحجاج:

ألم تر ما قالتْ نوار، ودونها
من الهم لي مستضمر أنا كاتمه
تقول وعيناها تفيضان: هلْ ترى
مكانك ممن لا أراك تخاصمه
تنح عن الحجاج إن زحامه
شديد إذا أغضى على من يزاحمه
ومن يأمن الحجاج، والجن تتقي
عقوبته إلا ضعيفٌ عزائمه[28]

لقد وصل الرعب من الحجاج إلى أسرة الشاعر، مما جعل النوار وهي زوجته التي عرفت بنفورها منه تحذّره من بطشه، ولعل عبارة "والجن تتقي عقوبته" تختصر كثيرا من موقف الرعب الذي يعيشه الشاعر من السلطة السياسية ممثلة بالحجاج.

إن معرفة النوار بما كان يدور حولها من سياسة الحجاج يؤكد ثقافة المرأة في المجال السياسي حيث لم تكن غائبة تماما عما كان يدور حولها من أحداث سياسية، بل إن بعض النساء في هذا العصر كان لديهن رأي سياسي خاص بهن، فانضوين تحت مذهب من المذاهب السياسية المعروفة، ولكنهن اختلفن في درجة مشاركتهن الفعلية فيه.[29]

مما يؤكد نهج بعض رموز السلطة السياسية في إخافة الناس وترهيبهم في هذا العصرأيضا سياسة، والي البصرة الحكم بن أيوب ابن عم الحجاج، وزوج أخته الذي جعل هو الآخر الفرزدق يذعن له كما في قوله:

كاد الفؤاد تطير الطائراتُ به
من المخافة، إذْ قال ابن أيوبِ
في الدارِ: إنّك إن تُحدثْ فقد وجبتْ
فيك العقوبةُ من قطعٍ وتعذيبِ
في محبسٍ يتردى فيه ذو ريبِ
يخشى علي، شديد الهول مرهوبِ
فقلتُ: هل ينفعنّي إن حضرتكم
بطاعة وفؤاد منك مرعوبِ
ما تنه عنه ، فإنّي لستُ قاربه
وما نهى من حليمٍ مثلُ تجريبِ
وما يفوتك شيء أنتَ طالبه
وما منعتَ فشيء غير مقروبِ[30]

إن معجم الشاعر في هذه الأبيات يشي بحالة الرعب التي يعيشها: (المخافة، العقوبة، قطع وتعذيب، محبس، يخشى، شديد الهول، مرهوب، مرعوب...) ولا أدري إن كان الفرزدق وهو من هو في مكانته القبلية، واستعلائه البلاغي،

ومضاء لسانه يعيش كل هذا الخوف من السلطة السياسية ويذعن لها، فكيف بالآخرين ممن لا حول لهم ولا قوة؟!

تعرض الفرزدق للسجن غير مرة، منها وهو في سن متقدمة من عمره؛ لأنه انتقد سياسة خالد القسري - والي العراق زمن هشام بن عبد الملك - في صرفه الأموال الباهظة على شقّ النهر المسمى بالمبارك، وقد كانت بينهما ضغائن قبلية، فكتب خالد إلى مالك بن المنذر – صاحب الشرطة- أن احبس الفرزدق؛ فإنه هجا نهر أمير المؤمنين بقوله:

أَهلَكْتَ مالَ ا ، في غَيرِ حقّـ ـه
علَى النهرِ المشْؤومِ غَيرِ المبارك
وتَضرِب أَقْواماً صحاحاً ظُهورها
وتَتْرك حق ا في ظَهرِ مالِـ ـك
أَإِنْفَاقَ مال ا في غَيرِ كُنْهـ ـه
ومنْعاً لِحق المرملات الضوانك[31]

رغم ما ذكرت من قبل من محاولات السلطة السياسية محاربة القبلية، وإثبات سلطة الدولة إلا أنها كانت متفشية بصورة كبيرة بين كل من أفرادها والرعية، وكان السياسي يحابي قبيلته كثيراً ومن والاها من القبائل الأخرى، حتى لو أدى به الأمر إلى منع حق ا في القصاص من القتلة والخارجين على القانون، ويتشدد في عقاب المخالفين له من القبائل المنافسة.

ولكن ما رآه الفرزدق من هول السجن جعله يتنصل من انتقاده له، وهجائه إياه قائلا:

إِذا قالَ راوٍ من معد قَصيـ ـ ـ ـدةً
بها جرب كانَتْ علي بِزوبـ ـ ـرا
أَينْطقُها غَيرِي وأُرمى بِعيبِهـ ـ ـا
فَكَيفَ أَلُوم الدهر أَن يتَغَيـ ـ ـ ـرا
لَئِن صبرتْ نَفْسي لَقَد أُمرتْ بِـ ـه،
وخَير عباد ا من كان أَصبـ ـرا
وكُنْتُ ابن أَحذارٍ ولَو كنتُ خائفـ ـاً
لكُنْتُ من العصماء في الطود أَحذرا
ولَكن أَتَوني آمناً لا أَخَافُهـ ـ ـ ـم
نَهاراً، وكان ا ما شَاء قَـ ـدرا[32]

موقف الفرزدق هذا يؤكد مدى فاعلية سياسة الترهيب والتخويف من قبل الحاكم للشاعر، لأن ما رآه في السجن جعله يتراجع عن شعره الذي قاله في انتقاد خالد وسياسة الإنفاق التي اعتمدهـا بأن نسبها إلى غيره، بل أكثر من ذلك اعتذر له ومدحه في قصائد عديدة[33]، وفي ظلّ هذه المحنة برز اهتمامه في أمور الدين من جهة التزامه الصبر، وإيمانه بالقضاء والقدر ومشيئة ا ، إذ قد يبدو تدين الإنسان في ظل المحن والارتجاع إلى ا أكثر من أي وقت آخر.

لقد تعلم الفرزدق من تجربته مع زياد بن أبي سفيان في أيام شبابه الأولى درسا مفيدا في كيفية التعامل مع الحاكم، فقد كانت تجربة مريرة قاسية خففت من استعلائه وغلوائه في التعرض للسلطان، ومحاولة مجابهته والوقوف في وجهه؛ لذا نراه في زمن الحجاج، والحكم بن أيوب ينتهج سياسة مغايرة تماما للتي انتهجها من قبل مع معاوية بن أبي سفيان في مطالبته بميراث الحتات، والتقليل من شأن واليه على العراق آنذاك زياد بن أبي سفيان، وإن خانته حكمته وحذره في هذا المجال وتجرأ على السلطان، فسرعان ما كان يتراجع ويعتذر له، بل يسارع إلى مدحه كما حدث مع خالد القسري وغيره.

ثانيا- الخوف من الزمن

لعلّ من أهم مظاهر الخوف من الزمن التي عالجها الفرزدق في شعره هي الشيب، والهرم، والموت، وهذه المظاهر ربما هي من أشد ما يخيف الإنسان في حياته، فالشيب والهرم من صور الموت، ومظهر من مظاهره، فالشّيب أحد تحولات الزمن المهمة، وأثر من آثار الصيرورة، رآه بعض الشعراء نذير الكبر والهرم ومن ثم الموت، وهو عند اليونان والرومان ومن سبقهم رمز للزمن، فقد" رسموا الزمن إلهاً وشخّصوه، ووضعوا له تمثالاً يبدو من خلاله شيخاً أشيب اللحية، له عينان براقتان تدلان على حدة الذكاء والنجابة".[34] وهو في الثقافة الإنسانية "نسق علامي دال على تحول ما يطرأ على حياة الإنسان، ومظهر بارز يشي بعبور الإنسان من مرحلة الحيوية وامتلاء الذات إلى مرحلة يحس فيها بعقدة السلب وهاجس الغياب"[35]، وقد رآه بعضهم" محنة إنسانية يشعر بها الناس جميعاً، ويحسون آثارها في أنفسهم".[36]

بدا إحساس الفرزدق بالقلق والخوف من الشيب بصورة كبيرة من خلال شعره، وهو غالبا ما يربطه بالمرأة، فيصورها نافرة منه، أو متضاحكة من صاحبه. قال:

تَضاحكَتْ أَن رأَتْ شَيباً تَفَرعنـ ـي
كأَنها أَبصرتْ بعض الأعاجِيـ ـبِ
من نسوة لِبني لَيث وجِيرتهـ ـ ـ ـم
برحن بِالْعينِ من حسنٍ ومن طيبِ
فَقُلْتُ إن الْحواريات معطبـ ـ ـ ـةٌ
إذا تَفَتَلْن من تَحت الْجلابِيـ ـبِ[37]

كانت المرأة محور الاهتمام والحديث عن الشيب في شعر الفرزدق كما عند كثيرين من الشعراء الآخرين؛ إذ شاع أن المرأة تعاف الرجل إذا ما شاب مفرقه وتقدم سنّه، بل أكثر من ذلك ربما سخرت منه وهجرته. فهي نافرة من الشيب أبدا كما في قوله:

رَأَيتُ الْعذارى قَد تَكرهن مجلســـي،
وقُلْن: تَولّى عنْكَ كُل شَبَـــابِ
ينُرن إذا هازلْتُهن ، وربمــــــا
أَراهن في الإِثْآرِ غَير نَـــوابِ
عتَبن على فَقْد الشّبابِ الذي مضـى،
فَقُلْتُ لَهن: لاتَ حين عتابِ![38]

مثلما ارتبط تقدم السن بالحلم والحكمة في الثقافة العربية، ارتبط الشباب بالصبابة، فقد عاتبته زوجته النوار على صبابته، فقال على لسانها:

وتَقُولُ كَيفَ يميلُ مثْلُك للصـــبا
وعلَيك من سمة الحليمِ عـــذَار
والشيب ينْهض في السواد كَأنـــه
لَيلٌ يصيح بجانبيه نَهـــــار
إن الشباب لَرابِح من باعـــــه،
والشيب لَيس لِبائِعيه تجـــار[39]

لعل صياح الليل كائن بسبب إحساسه بقرب نهاية الشباب والفناء بالنسبة للإنسان، فالشيب يزحف على شبابه من كلا الجانبين، فينافسه على موقعه، ومن ثم على كل ميزات الشباب من حيوية ونشاط.

ويحاول الشاعر أن يتجاوز محنة الشيب بإخفائه عن طريق الخضاب قائلا:

خَضبتُ بجيد الْحناء رأْســــي،
لِيعقب حمرةً بعد البـــــياضِ
هما لَونَانِ من هذَا وهـــــــذَا،
كلاَ اللونَينِ لَستُ له بـراضِ[40]

الخضاب عادة اجتماعية شائعة، لكن الشاعر بدا غير مقتنع بها، فأبان عن كونها عادة غير مرضية؛ لأنها تزييف لواقع كبير السن الذي لا يفيد معه خضاب، ولا أي شيء آخر.

وقد قارن بين أيام الشباب والشيب مبينا فضل الشباب على الشيب بقوله:

أَرى الدهر، أَيام المشيبِ أَمـــره
علَينا، وأَيام الشّبابِ أَطَايبـــه
وفي الشّيبِ لَذّاتٌ وقُرةُ أَعيـــنٍ،
ومن قَبله عيشٌ تَعلَّلَ جادبـــه
إذا نَازلَ الشّيب الشّباب فأَصلَتَـــا
بِسيفَيهما، فالشيب لا بد غَالِبـــه
فَيا خَير مهزومٍ ويا شَر هـــازِمٍ،
إذا الشيب راقَتْ للشّبابِ كَتَائِبـه
ولَيس شَباب بعد شَيبٍ بِراجِـــع
يد الدهرِ حتى يرجع الدر حالِبه[41]

لقد جعل الشاعر العلاقة بين الشيب والشباب علاقة تضاد كما هي على مستوى اللفظ؛ لتكشف عن حالة الصراع بينهما، فأيام الشباب مرغوب فيها؛ لأنها جميلة طيبة، في حين أيام الشيب مكروهة؛ لأنها مرة وبائسة، والشيب غالب للشباب أبدا كما الزمن غالب للإنسان، قاهر له، لكن هذه الهزيمة لا تقلل من قيمة الشباب، ولا من الرغبة فيه، كما لا ترفع من شأن المنتصر، أو ترغّب فيه، أي الشيب، فهو مكروه رغم انتصاره، ويبدو تحسر الشاعر على الشباب في البيت الأخير واضحا؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لن يرجع أبدا.

ويدعي الفرزدق أن النوار زوجته كرهته بسبب شيبه[42]. قال:

رَأَيتُ نَوار قَد جعلَتْ تَجنّـــى
وتُكْثر لِي الْملامةَ والْعتَابـــا
وَأحدثُ عهد ودك بِالْغَوانـــي
إذا ما رأْس طَالِبِهن شَابـــا
فَلا أَسطيع رد الشيبِ عنّـــي
ولاَ أَرجو مع الْكبرِ الشبابـــا
فَلَيتَ الشيب يوم غَدا علَينَـــا
إلى يومِ الْقيامة كان غَابـــا
فَكان أَحب منْتَظَر إلَينَـــــا
وَأبغَض غَائِبٍ يرجى إيابـــا
فَلَم أَر كالشبابِ متَاع دنْيـــا
ولَم أَر مثْلَ كسوته ثيابـــا
ولَو أَن الشباب يذَاب يومـــاً
به حجر من الْجبلَين، ذَابـــا
فَإني يا نَوار أَبى بلائـــي
وقَومي في الْمقَامة أَن أُعابـا[43]

إن يأس الشاعر من عودة الشباب مع كبر سنه جعله يتمنى -على الأقل- لو أنه استطاع تغييب الشيب إلى يوم القيامة، وعدم رؤيته كرها له وضيقا منه، فالشباب متعة الدنيا ولذتها، وبالتالي لا غرابة إذا ما ربطه الشاعر بالمرأة قبولا ورضى لديها، واعتزازا بالقوة والحيوية والامتلاء عنده.

كان الخوف من الشيب مرتبطا عند الفرزدق بكبر السن وما يتبعه من ضعف وعجز، وهي جميعها مظاهر لقسوة

الزمن وتحولاته يمقتها الشاعر، بل لعل الموت أفضل منها كما في قوله:

إذا ما العذارى قُلْن: عم، فَلَيتَنـ ـ ـي
إذا كان اسمي كُنْتُ تَحتَ الصفَائِح
دنَون وَأدنَاهن لِي أَن رأَيتَنـ ـ ـي
أَخَذْتُ العصا وابيض لَون المسائِح
فَقَد جعلَ المفْروك، لا نَام ليلُـ ـه،
يحب حديثي والغَيورِ المشَايِـ ـح
وقَد كُنْتُ مما أعرِفُ الوحي مالُـ ـه
رسولٌ سوى طَرف من العينِ لامح
وقُلْتُ لِعمرٍو، إذْ مررن: أقاطـ ـع
بها أَنْتَ آثَار الظباء السوانـ ـح
لَئِن سكَنَتْ بي الوحشُ يوماً لَطالَما
ذَعرتُ قُلُوب المرشقَات الملائِح[44]

يصور الشاعر في هذه الأبيات واقع كبير السن في مجتمعه بالنسبة للمرأة خاصة، حيث يدعى من قبل الفتيات بلفظ: (عم) وهو اسم مكروه عنده، ثقيل على سمعه، بل إنه يفضل الموت على أن يشيخ ويهرم فتناديه الفتيات بهذا الاسم، ومما يميز حياة كبير السن حسب رأي الشاعر أنه مأمون الجانب فلا يخاف الرجال الآخرون منه على نسائهم، كما أن النساء يتعاملن معه باطمئنان لعلمهن بأنه لم يعد يشكّل تهديدا بالنسبة لهن- يعني نفسه هنا- في حين كان في الماضي يذعر قلوب الحسناوات منهن كما يقول.

من مظاهر خوف الفرزدق من الكبر والهرم تمسكه بأبنائه انتظارا لذاك الزمان، وقد يحتفظ بزوجته إن اختلّت العلاقة بينهما لأجلهم؛ لأنهم ذخر له في الكبر والهرم كما يقول في مخاطبة زوجته سويدة:

ولَو سأَلَتْ عني سويدةُ أُنْبِئَـ ـتْ
إذا كان زاد الْقَومِ عقْر الركابِـ ـبِ
بِضربِي بِسيفي ساقَ كُلِّ سمينَـ ـة،
وتَعليق رحلي ماشياً غَير راكبِ
ولَولا أُبينُوها الذين أُحبهـ ـ ـ ـم
لَقَد أَنْكَرتْ منّي عنُود الْجنائِـ ـبِ
ولَكنهم ريحان قَلبي، ورحمـ ـ ـةٌ
من ا ـ أَعطَاها مليك الْعواقـ ـ ـبِ
يقُودون بي إن أَعمرتْني منيـ ـةٌ
وينْهون عني كُلَّ أَهوج شَاغـ ـبِ
هم بعد أَمرِ ا شَدوا حبالَهـ ـ ـا،
وأَوتَادها فينَا بِأَبيض ثَاقـ ـ ـبِ[45]

إن الخوف من الشيب والهرم والضعف هي إرهاصات للخوف من الموت الذي بان في مواطن مختلفة من شعر الفرزدق لعل من أهمها:موقف العظة والعبرة، وموقف الندم وإعلان التوبة. قال ناصحا بالتزود من الأعمال الصالحة التي تخفف العذاب على الإنسان في الدار الآخرة الذي قد يخلد فيها طويلا:

تَزود فَما نَفْس بعاملَة لَهـ ـ ـ ـ ـا،
إذا ما أَتَاها بِالمنَايا حديدهـ ـ ـا
فَيوشك نَفْس أَن تَكُون حياتُهـ ـ ـا،
وإن مسها موتٌ، طَوِيلاً خُلُودها
وسوفَ تَرى النفْس التي اكْتَدحت لَها
إذا النفْس لَم تَنْطقْ وماتَ وريدها[46]

وقد اتخذ من موت الحجاج وبعض أفراد أسرته عظة وعبرة. قال:

إني أَرى الحجاج أَدركَـ ـ ـ ـ ـه
ما أَدرك الأروى على الْوعـ ـ ـرِ
وأَخَاه وابنَيه اللذَينِ همـ ـ ـ ـ ـا
كانَا يديه وخَالِص الصـ ـ ـ ـ ـدرِ
ذَهبوا، ومالُهم الذي جمعـ ـ ـ ـ ـوا
تَركُوه مثْلَ منَضد الصخْـ ـ ـ ـرِ
دخَلُوا قُبورهم إذا اضطَجعـ ـ ـ ـوا
فيها، بِأَوعية لَهم صفْـ ـ ـ ـرِ[47]

لعل جبروت الحجاج الذي عاصره الشاعر هو ما دفعه لاتخاذ العبرة من موته وموت بعض أفراد أسرته؛ إذ لم يحمهم من الموت ما كانوا يملكونه من مال ومكانة وقوة، فهم جميعا قد تركوا ذلك وراءهم وأصبحوا في قبورهم مثلهم مثل غيرهم من الناس، وهذا مدعاة لأن يتفكّر الإنسان بما يقوم به في حياته، وما سيجده بعد مماته. وقد بدت العظة والعبرة في قوله أيضا:

أرى السجن سلاّني عن الروعة التي
إلَيها نُفُوس المسلمين تَحـ ـ ـ ـوم
عجِبتُ من الآمال والموتُ دونَهـ ـا
وماذا يرى المبعوثُ حين يقُوم[48]

ويبدو الخوف من الموت عند الفرزدق في قلقه حول ما سيجده في مرحلة ما بعد الموت؛ أي عذاب جهنم الذي بدا عارفا له من خلال وصف علاقته بزوجته رهيمة. قال:

تُجدد لي ذكْرى عذَابِ جهنـ ـ ـ ـمٍ،
ثَلاثاً تُمسيني بِها وتُغـ ـادي[49]

سأل الحسن البصري الفرزدق في جنازة النوار: "ماذا أعددت لهذا اليوم يا أبا فراس؟ قال: شهادة أن لا إله إلا ا

منذ ثمانين سنة"، وأنشأ يقول واصفا خوفه مما يمكن أن يجده بعد الموت من عذاب:

لَقَد خَاب من أَولاد دارِم من مشَى
إلى النارِ مشْدود الخنَاقة أَزرقَـا
إذا جاءني يوم القيامة قَائِـ ـ ـ ـد
عنيفٌ وسواقٌ يسوقُ الفَرزدقَـا
أَخَافُ وراء القَبرِ، إن لَم يعافنـي
أَشَد من القَبرِ التهاباً وَأَضيـ ـقَا
إذا شَرِبوا فيها الصديد رأَيتَهـ ـم
يذُوبون من حر الصديد تَمزقا[50]

وقد بدا خوف الشاعر من الموت أيضا في هجائه لإبليس الذي حمله أخطاءه وفحش هجائه. قال:

أَطَعتُك يا إبليس سبعين حجـ ـةً
فَلَما انْتَهى شَيبِي، وتَم تَمامـ ـي
فَررتُ إلى ربي، وَأَيقَنْتُ أَننـي
ملاَق لِأيامِ المنُونِ حمامـ ـ ـي
ولَما دنَا رأْس التي كُنْتُ خَائِفـاً
وكُنْتُ أَرى فيها لِقَاء لِـ ـ ـ ـزامِ
حلَفْتُ على نَفْسي لأَجتَهدنهـ ـا
على حالِها من صحة وسقَـامِ[51]

برزت في قصيدة الفرزدق التي هجا فيها إبليس إشارات ثقافية ودينية مهمة، إذ يفسر هجاءه للناس بأنه نابع من ثقافة معروفة في عالم الشعر والأدب بأن لكل شاعر شيطانا يلقّنه الشعر ويساعده عليه، وبالتالي، فإن هذا الهجاء وما قام به من إساءة للآخر على مدى عمره الطويل إنما هو من صنع شيطانه لا من صنعه هو، وكأنه هنا يعتذر للآخر، ويتنصل من أعماله، أما الثقافة الدينية، فتمثلت في إشارته إلى أن إبليس هو من أغوى آدم وحواء وأخرجهما من الجنة، وقد هدد بأن يبقى ملاحقا للإنسان في حياته على الأرض ليغويه؛ وفي ظل كل هذا فإن الفرزدق فسر هجاءه للآخرين بأنه من عمل إبليس، فحمله ذنوبه، بل أكثر من ذلك هجاه، فالقصيدة ربما كانت صراعا بين ما يريده الشاعر من فن الشعر خاصة الهجاء الذي برع فيه وأعطاه سلطة على الآخر، وشهرة في عصره، وبين إحساسه بالذنب والخوف من عقاب الله على ما ارتكبه من ذنوب.[52]

إن مثل هذا الشعر يشعرنا بأنّ الفرزدق ندم على أفعاله السابقة خوفا من الموت، بل من عقاب ما بعد الموت، وكأنه يعلن توبته عما بدر منه، وقد ذكر الأصفهاني عن أحدهم "أنه خرج في ليلة باردة، فدخل المسجد، فسمع نشيجا وبكاء كثيرا، فلم يعلم من صاحب ذلك إلى أن أسفر الصبح، فإذا الفرزدق، ولما سأله عن أمره، أخبره بأنه تذكّر ذنوبه، فأقلقته، ففزع إلى الله عز وجل".[53] ولكن ورغم هذه المحاولات من طرف الفرزدق، فإن شخصية الفرزدق كانت من الشخصيات العاتية التي لم تكن تأبه كثيرا بالموت أو ما بعده كما يبدو من شعره، ومن أخباره رغم ما ورد من أشعار تشير إلى عكس ذلك، ويبدو أن خوفه من الشيب كان لعلاقته بالمرأة، وليس لكونه متعلّقا بالموت، ولعل ذلك كله ناتج عن كونه متهما في عقيدته كما هو واضح من خلال شعره أيضا، وما صاحب هذا الشعر من أخبار.

ثالثا- الخوف من ألسنة الشعراء

لم تكن السلطة السياسية والزمن هما فقط ما يثير الخوف والرعب في قلوب الناس، بل ساهم الشعراء ومنهم الفرزدق بدورهم أيضا في إشاعة الخوف بين الآخرين من خلال تهديدهم لهم بالهجاء، أو قيامهم بترهيبهم وهجائهم فعلا، فقد كان لسان الفرزدق الخائف في مراحل كثيرة من حياته يخرج ما بداخله من خوف ليثير الفزع والخوف بدوره في قلوب الآخرين كل حسب اختصاصه، فكان سيفا مصلتا على رقبة كل من يحاول اعتراض أمره، أو الخروج على طاعته، ولعل في تفاصيل قصته مع زوجته النوار أخبارا كثيرة من هذا القبيل، فقد نفرت النوار، وأرادت الشخوص إلى ابن الزبير حين لم يستطع أهل البصرة تحقيق رغبتها بالطلاق منه، وأعياها الشهود أن يشهدوا لها خوفا من الفرزدق، وابن الزبير يومئذ أمير الحجاز والعراق، يدعى له بالخلافة، فلم تجد من يحملها إليه خوفا من الفرزدق أيضا، ولما فعل ذلك فتية يقال لهم بني أم النسير يجمعهم بها صلة رحم بعد جهد شديد هددهم بقوله:

وإن الذي أمسى يخبب زوجتـ ـي
كماشٍ إلى أُسد الشرى يستبيلها[54]

ولما لجأت إلى بني قيس بن عاصم هجاهم بقوله:

بني عاصم لا تجنبوها فإنكـ ـ ـ ـم
ملاجئُ للسوآت دسم العمائـ ـم
بني عاصمٍ لو كان حيا أبوكُـ ـ ـ ـم
للام بنيه اليوم قيس بن عاصم[55]

وفي قصة طلاقها النهائي من الفرزدق، ذكر الأصفهاني أنه صحب النوار رجال كثير إلا أنهم كانوا يلوذون بالسواري خوفا من أن يراهم الفرزدق.[56] إن هذه الأخبار وما صاحبها

من شعر توضح مدى خوف الناس من ألسنة الشعراء، فكانوا يتحاشون مساعدة من يحتاج إلى المساعدة، ويبتعدون عن قول الحقّ أو شهادة صدق خوفا من أن يتعرض لهم الشعراء بالهجاء، وينتشر بين الناس، فيفتضحون به، وقد يذهب بعضه مثلا، مثل قوله في أبناء عبد ا بن الزبير الذين لم تنجح شفاعتهم عند أبيهم في أمر النوار في حين نجحت شفاعة زوجته بنت منظور:

أما بنوه فلم تقبلْ شفاعتُهـــــم
وشُفّعت بنت منظور بن زبانـــا
ليس الشفيع الذي يأتيك مؤْتـــزرا
مثلَ الشفيع الذي يأتيك عريانا[57]

وقد يتخذ ترهيب الناس من الهجاء اتجاها آخر، فيؤدي الخوف من ألسنتهم إلى أن يقوم الآخر بفعل ما يطلبه منه الشاعر سواء اقتنع به أم لم يقتنع. ذُكر أن امرأة عاذت بقبر غالب والد الفرزدق، فلما سألها عن حاجتها أخبرته أن لها ابنا وحيدا يقال له حبيشا قد جمر بالسند، وقد صانعت فيه فأعياها ذلك، فكتب إلى عامل الناحية التي كان ابنها فيها أبيات شعرية منها:

تَميم بن زيد! لا تَهونَن حاجتـــي
لديك، ولا يعيا عليّ جوابــــها
ولا تَقْلبن ظَهراً لِبطْنِ صحيفَتـــي،
فَشَاهد هاجيها عليك كتَابهـــا
وهب لي خُنَيساً واتّخذْ فيه منّـــةً
لِحوبة أُم ما يسوغُ شَرابهـــا[58]

فلما قدم الكتاب على تميم لم يدرِ ما الاسم حبيش أو خنيس، فأخرج ديوانه، وأقفل كل حبيش وخنيس في جيشه، وهم عدة، وأنفذهم إلى الفرزدق.[59]

إن خوف الأم على ابنها – إن صحت الرواية - جعلها تلجأ إلى الفرزدق حتى يرده إليها، ويخلّصها من خوفها وقلقها عليه. وخوف عامل الناحية من لسان الفرزدق جعله يفعل ما فعل. فالقصة السابقة وما معها من شعر تكشف عن المدى الذي بلغه إرهاب الكلمة عند كثيرين، والمدى الذي بلغه الشعراء في إخافة الآخرين وإرغامهم على تلبية حاجاتهم، وإلا فالهجاء -هذا الداء الاجتماعي المرعب الذي له تأثير حد السيف القاطع - مصيره الذي ينتظره.

هذا الشعر يصور جانبا من الحالة الثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع، والمدى الذي وصل إليه الشعراء في ترهيب الآخر، واستغلال مواهبهم البلاغية في إلحاق الخوف والأذى بالآخرين، كما أنه يشير إلى عادة كانت معروفة عند العرب؛ وهي اللجوء إلى قبور الأسياد والمشهورين لتحقيق غايات معينة.

والفرزدق يعترف بإخافة الآخر بشعره ويفتخر بذلك. قال:

وما زِلْتُ أَرمي عن ربِيعةَ من رمى
إليها، وتُخْشَى صولَتي من ورائِها
بِكُل شَرود لا تُرد، كأَنهـــــا
سنَا نَارِ لَيلٍ أُوقدتْ لِصلائِهـــا
ستَمنَع بكْراً أَن تُرام قَصائِـــدي،
وأَخْلُفُها من ماتَ من شُعرائِها[60]

وهجاؤه داهية من الدواهي يهديها لخصمه. قال في هجائه جندل بن الراعي النميري الشاعر المعروف:

أَتُوعدني قَيس ودون وعيدهـــا
تُراء تَميمٍ والعوادي من الأســد
سأُهدي لعاوي قَيسِ عيلان إذ عوى
لِشقْوته إحدى الدواهي التي أُهدي[61]

لعل الخوف من الشعراء هو مما ينطوي عليه الخطاب الشعري؛ إذ يعتقد أن فن الهجاء كان يقوم على السحر والشعوذة، وهو ما يعد قوة رهيبة يخافها الناس، لقد أشار بروكلمان إلى أن الدراسات كشفت عن علاقة فن الهجاء بالسحر، فهجاء الشاعر لخصمه لعنات سحرية يطلقها لتعطيله؛ لذا هو يصور خصمه بخياله الشعري معتقدا أن ذلك هو ما سيحدث له على وجه التحديد.[62]

روى صاحب الأغاني عن خالد بن كلثوم الكلبي أنه مر بالفرزدق فأجلسه إلى جانبه، فتعوذ با من شره خوفا منه، فقال له: أنشدني بعض أشعار ابن المراغة في؛ يعني جريرا، فجعلت أنشده، حتى انتهيت، ثم قال: فأنشد نقائضها التي أجبته بها، فقلت: ما أحفظها، فقال: يا خالد، أتحفظ ما قاله في، ولا تحفظ نقائضها؟! وا لأهجون كلبا هجاء يتصل عاره بأعقابها إلى يوم القيامة إن لم تقم حتى تكتب نقائضها وتحفظها وتنشدنيها، فقلت: أفعل، فلزمته شهرا، حتى حفظت نقائضها، وأنشدته خوفا من شره.[63] ومن ذلك أيضا أن فتى في بني حرام بن سماك قد هجا الفرزدق، فأخذه أهله وأتوا به الفرزدق، وقالوا له:هو بين يديك، فإن شئت فاضرب، وإن شئت فاحلق، لا عدوى عليك ولا قصاص، فخلّى عنه وقال:

فمن يك خائفا لأذاة قولـــــي
فقد أمن الهجاء بنو حـــرام
هم قادوا سفيههم وخافـــــوا
قلائد مثل أطواق الحمـــام[64]

وقد تطلب المرأة من خصم زوجها هجاءه، فقد قال

الفرزدق في النوار شعرا يفضل عليها زوجته الثانية حدراء، فقالت له: وا لأخزينك يا فاسق. فجاءت جريرا، فقالت له أما ترى ما قال الفاسق، وشكته إليه، وأنشدته شعره، فقال جرير أنا أكفيك، واشتعلت بينهما نار الهجاء.[65]

ومما يصور حال هذا العصر في هذا المجال أيضا ما قاله الفرزدق في هجاء نافع ابن عقيل:

وَنُبِّئْتُ كَلْبَ ابنَي حميضةَ قَد عـوى
إلي ونَار الحربِ تَغْلي قُدورهـا

وودتْ مكان الأنْف لَو كان نَاقـع
لَها حيضةٌ أَو أَعجلَتْها شُهورهـا

مكان ابنها إذْ هاجني يعوِلِـــه
عليها، وكانَتْ مطْمِئِنّاً ضميرهـا

لكان ابنُها خَيراً وأَهون روعـةً
عليها، من الجربِ البطيء طُرورها

دوامع قَد يعدي الصحاح قرافُهـا
إذا هنَئَتْ يزداد عراً نُشُورهـا

وكان نُقَيع إذْ هجاني لأمـــه
كباحثَة عن مدية تَستَثيرهـــا

عجوز تُصلي الخَمس عاذَتْ بِغَالِب
فَلاَ والذي عاذَتْ بِه لا أَضيرهـا

فَإني علَى إشْفَاقها من مخَافَتــي
وإن عقها بِي نَافع لَمجيرهـا[66]

إن تصوير الابن بمثل ما صور الفرزدق مهجوه إشارة لما كان يتميز به المولود الذكر في مجتمعه، والبشرى التي تكون بولادته، لكن هذا جميعه قد يتغير إلى النقيض تماما إذا ما أصبح الابن سببا لتعرض أعراض نسائه لألسنة الشعراء، ولاسيما الأم، بل لعل عدم مجيئه إلى الدنيا أفضل في هذه الحالة، فهو قد أصبح شرا على أمه، وهذه مفارقة؛ لأن الأصل أن يكون فيه خير كثير، ولعل تصوير تعاطف الشاعر مع أم مهجوه كانت زيادة منه في تبكيته لخصمه بسبب هجائه له؛ لأنه جلب الخزي والعار لأمه بما نالها من هجاء بسببه مع أنها امرأة صالحة، فقد سارعت لتعوذ بقبر غالب والد الفرزدق خوفا من لسانه، وهنا مرة أخرى يمعن الشاعر في هجاء نافع بجعله عاقا لأمه في حين كان هو أكثر إشفاقا عليها منه؛ لأنه لم يؤذها كما فعل ابنها معها.

يكشف الشعر السابق عن مدى تأثير شعر الهجاء وفعله في المجتمع العربي القديم؛ حيث الإرهاب البلاغي والاجتماعي، وحيث يوظَّف الشعر في الترهيب، وإحراج الآخر، وربما إلغائه، وحيث تعالي الشعراء وجبروتهم في هدم الأعراض، واستغلال المرأة أما وأختا وزوجة لتحقيق هذه الغاية، وهي غافلة لا علم لها بما يقال فيها، ولا بما يخبئه لها المستقبل من انتهاك حرمتها وتعرضها لسلاطة لسان شاعر ما دون ذنب أو جرم اقترفته، ولعل النقائض أقرب مثالا على ذلك.

أما هجاء الفرزدق للمرأة الشاعرة، فقد كان من الفحش بحيث كان سببا في إسكاتها عن قول الشعر، وربما كان أحد الأسباب وراء قلة وجود الشاعرات، فقد دخلت خولة الفقيمية في حرب الهجاء بين الفرزدق وبني فقيم في محاولة منها للدفاع عن قومها، فهجاها الفرزدق هجاء فاحشا تعف النفس عن ذكره[67]؛ مما جعلها تترك الحلبة للشعراء الرجال، ومثل هذا الترهيب للشاعرات كان شائعا في هذا العصر بصورة كبيرة كما حدث للشاعرة الدلماء التغلبية في تهاجيها مع الأخطل[68]، وهجاء النابغة الجعدي -كلاهما من شعراء العصر الأموي- للشاعرة ليلى الأخيلية التي ردت عليه ردا موجعا وعنيفا ومفحما في قصيدة طويلة منها قولها:

أعيرتني داء بأمك مثلُــــــه
وأي جواد لا يقال لها هــلا[69]

إذاً لم يقتصر التخويف والترهيب على السلطة السياسية والزمن، بل مارس الشعراء كذلك ألوانا من إرهاب الكلمة بحيث منعت كثيرين من قول الحق، أو الوقوف إلى جانبه، كما ألزمت كثيرين فعل أشياء ما كانوا ليفعلوها إلا خوفا من الشعراء ذوي الألسنة الحادة التي تنطق بالفحش، مثل لسان الفرزدق، ولاسيما إذا كان الأمر متعلّقا بالمرأة؛ لذا كان الناس يخافون من الهجاء ولاسيما إذا تعلّق بالأم، وإذا حاولت المرأة الشاعرة المشاركة فيما يدور حولها من أمور سياسية أو اجتماعية، فإن بعض الشعراء كانوا يسارعون إلى إسكاتها بالفاحش من القول.

كانت الحياة في المجتمع الأموي في جزء كبير منها تقوم على الفخر والهجاء، فكانت ردة إلى الجاهلية بعدما قام الإسلام بمحاربة القبلية، وكل ما له علاقة بها من التهاجي والتفاخر، وقد كانت المرأة جزءا من ذلك كله، بل كانت في كثير من الأحيان محورا فيه حتى أنها كانت تطلب من الشاعر أن يدافع عن عرضها، وتدفعه لذلك، فقد جاءت نسوة من بني مجاشع إلى الفرزدق بعدما كان قيد نفسه لحفظ القرآن قائلات: قبح ا قيدك، فقد هتك جرير عورات نسائك، فلحيت شاعر قوم! فأحفظنه، ففض قيده.[70] وقد كان هذا اللون من القيد يأخذ الناس به أنفسهم، أو يأخذهم به أولياؤهم ليوفوا بنذر أو يقوموا بأمر ما متوارث العصور القديمة. إن هذه الحادثة تؤكد أن المجتمع جميعه كان يموج في فتنة الهجاء والقبلية بحيث انشغل الناس عن أمور حياتهم ودينهم

بهذه العادات الجديدة القديمة التي كانوا يعيشون في ظلّها، فأمعنوا فيها حتى باتت مما يميز عصرهم وبيئتهم. فأصبح المجتمع العربي في العصر الأموي في العراق -خاصة- يموج في بحر تتلاطم فيه أمواج الهجاء والتفاخر القبلي والشخصي، ولاسيما أن سياسة الدولة الأموية كانت تقوم في جانب منها على زعزعة السلام القبلي بين القبائل العربية من باب فرق تسد، فكانت تضرب القبائل بعضها ببعض، ومن جانب آخر كانت تحارب القبلية حينما تجد فيها زعزعة لسلطانها، أو إزعاجا لأمنها.

رابعا- آليات مقاومة الخوف عند الفرزدق

لم يقف الفرزدق إزاء حالات الخوف التي عاشها في حياته مكتوف اليدين، بل نراه يقاومه ويستعلي عليه، ولعلّ من أهم وسائل مقاومة الخوف عنده كانت: الهروب من الخصم، ومن ثم الاستعلاء عليه، ومواجهته، وتحديه، وهجائه، والفخر بنفسه وقبيلته، وفي مواقف أخرى كان يبادر إلى مدح الآخر، وقد يصل الأمر عنده إلى حد الاعتذار والتذلل كما فعل مع الحجاج، والحكم بن أيوب، وخالد القسري وغيرهم، أما الخوف من الزمن، فقد قاومه ببعث الماضي، أو الرجوع إلى ا وإعلان الندم والتوبة. وتبدو الوسيلة الأولى ظاهرة في أيام شبابه كما فعل مع زياد بن أبي سفيان، فقد هرب منه إلى الحجاز، ولما أمن على نفسه هناك بدأ بتحديه وهجائه هجاء مرا ومما قاله فيه:

ألا من مبلغٌ عني زيـــــــاداً ـِأني قد لجأتُ إلى سعيـــــــد

وأني قد فررتُ إليه منْكُـــــــم إلى ذي المجد والحسبِ التلـــيد

فراراً من شتيمِ الوجـــــه ورد، يُفِرّ الأُسد خوفاً بالوعـــيد[71]

يشير الشاعر إلى ما كان معروفا من عادات اجتماعية في موقف الخوف هذا عندما لجأ الشاعر إلى إنسان ذي مكانة اجتماعية بقي في حمايته إلي أن انتهت أسباب خوفه، وهذا ما فعله حين لجأ إلى والي المدينة آنذاك سعيد بن العاص، فبقي في حمايته إلى أن أقيل عنها، وقد اعترف له بهذا الصنيع فترة طويلة من عمره ومدحه بشعر كثير.[72]

ولما اطمأن عند سعيد بن العاص بالمدينة قال في زياد متحديا له:

ألا من مبلغ عني زيـــــادا مغللة يخب بها البريـــــــد

بأني قد فررتُ إلى سعـــــيد ولا يسطاع ما يحمي سعيـــد

فررتُ إليه من ليثٍ هزبـــــر تفادى من فريسته الأســـــود

فإن شئت انتسبت إلى النصـارى وإن شئت انتسبت إلى اليهـــود

وإن شئت انتسبت إلى فُقَيـــم وناسبني وناسبتُ القـــــرود

وأبغضهم إلي بنو فُقَـــــيم ولكن سوف آتي ما تريـــد[73]

إن الشاعر يخبر زيادا بأنه لجأ إلى سعيد وهو مستعد للانتساب إلى النصارى، وإلى اليهود، وإلى القرود، وإلى بني فقيم على الرغم من كرهه لهم؛ لأنه يريد الهرب منه، ويفلت من عقابه.

وقال يهجو مسكينا الدارمي؛ لأنه رثى زيادا الذي كان يراه كافرا جبارا:

أَمسكين أَبكى ا عينَك، إنمــــا جرى في ضلالٍ دمعها إذْ تحدرا

أَتَبكي امرأً من أهل ميسان كافـراً ككسرى على عدانه أَو كقَيصـرا

أَقُولُ له لما أَتَاني نَعيـــــــــه: به لا بِظَبي بالصريمة أَعفَرا[74]

وقد يمتد هذا الهجاء إلى ما بعد موت الخصم مظهرا مزيدا من الكراهية والتشفي بموته والخلاص منه. قال مظهرا فرحه بموت زياد:

أَبلغْ زياداً إذا لاقَيتَ جِيفَتَه، أَن الحمامةَ قد طارتْ من الحـرمِ

طارتْ فما زالَ ينْميها قَوادمهـا حتّى استَغَاثَتْ إلى الصحراء والأجمِ[75]

إن كبر الفرزدق واستعلاءه لم يمنعاه من استعطاف خصمه بوصف حاله ومعاناته له. قال مخاطبا زيادا بأنه يؤثر الوداعة والسلام والأمن مثل حمام الحرم:

أَلم يأْته أَني تَخَلّ نَاقتـــــي بِنَعمان أَطْرافَ الأراك النواعـمِ

مقَيدةً تَرعى البرير ورحلُهـــا بمكةَ ملْقى عائذٌ بالمحـــارمِ

فإلا تداركْني من ا نعمـــــة ومن آل حربٍ أَلْقَ طَير الأشَايـمِ

فَدعني أَكُن ما كُنْتُ حياً حمامـةً من القَاطنَات البيت غَير الروائِمِ[76]

تبدو القبلية غائبة تماما عن هذا الشعر كما غابت عن كثير من أشعار الخوف عند الفرزدق، فهو يحاول هنا استدرار عطف زياد ملتجئا إلى الدين، والارتجاع إلى ا . إن الإحساس بسطوة السلطة السياسية، وضرورة اللجوء إلى الدين مع غياب القبلية يؤكد ما ذهبت إليه من محاولة السلطة السياسية إثبات سلطة الدولة واستبعاد سلطة القبيلة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. لقد استشعر إنسان هذا العصر هذا التغير الكبير، ولعل عبارة سلمة بن عياش وهو من بني عامر بن لؤي من قريش التي قالها للفرزدق عندما التقى به في السجن، وقد اتهم قومه باللؤم والذلة: ألا أخبرك بأذلّ منهم وألأم؟ قال: من؟ قال: بنو مشاجع. قال الفرزدق: ولم ويلك؟ قال: أنت سيدهم وشاعرهم وابن سيدهم، جاءك شرطي مالك حتى أدخلك السجن، لم يمنعوك. قال كأنما يقر بذلك: قاتلك ا .[77]

ومن الوسائل التي اعتمدها الشاعر في مقاومة الخوف مهادنة السلطان وكسب رضاه، افتداء لنفسه، وذلك بالمبادرة إلى مديحه خوفا منه، وحتى يقي نفسه غضبه، ومن ثم عقابه، وقد بدا هذا بصورة واضحة في علاقته مع الحجاج. قال:

إن ابن يوسفَ محمود خَلائِقُـ ـه
سيان معروفُه في الناسِ والمطَر
هو الشهاب الذي يرمى العدو بِـ ـه
والمشْرفي الذي تَعصى به مضر
لا يرهب الموتَ إن النفْس باسلَـ ـةٌ
والرأْي مجتَمع والجود منْتَشر[78]

إن هذا المدح هو من باب الدفع مقدما خوفا من الحاكم حتى يضمنه إلى جانبه إن طرأ طارىء، وحتى يفلت من عقابه إن هو أخطأ أو زلت قدمه أو لسانه، فهو يعرف مقدار قوته وصولته، وأنه لا مجال للفرار منه كما فعل مع زياد من قبل، فمثل هذا العمل له أصوله في الثقافة العربية، إذ يمكن لشعر الفرزدق المدحي في الحجاج وغيره من مظاهر السلطة السياسية الذي طبع بطابع الخوف، أن يفسر في ضوء التبادل الطقوسي الذي بحثه (مارس ماوس) في مقالته عن (الهدية، الأشكال القديمة للتبادل) الذي فسر فيه ميزات التبادل الطقوسي ووظائفه، فيمكننا القول إن شعر الفرزدق في الحجاج هو قيض في مقايضة طقوسية، أو في تبادل طقوسي للقصيدة، فالقصيدة ليست مجرد مدح للحجاج في شكل موزون ومقفى، بل إنها تؤدي وظيفة سلعة للتبادل في عملية افتداء حياة إنسان؛ أي تكون فدية، وفي ضوء هذا التفسير يمكننا أن نتوصل إلى إدراك جديد لوظيفة الشعر الطقوسية في المجتمعات التقليدية بصفة عامة.[79]

لقد لخص (إيفانز بريتشارد) نظرية (ماوس) في مقدمته لكتابه، فقال:" تُعد التبادلات في المجتمعات العتيقة حركات أو أنشطة اجتماعية متكاملة، فهي – في الوقت نفسه- ظواهر اقتصادية وقانونية وأخلاقية وجمالية ودينية وأسطورية، مشكّلة لبنية المجتمع بحيث لا يتم استيعاب معنى هذه التبادلات إلا إذا نظرنا إليها بوصفها صورة الواقع المتداخل الملموس".[80]

لقد أرضى هذا المدح غرور السياسي بلا شك؛ لأن الحجاج كان يحب أن يوصف بالقوة والسطوة. قال:

ولو أني يصين استَان أهلـ ـ ـ ـي،
وقَد أَغْلَقْتُ من هجرين بابـ ـ ـا
علَي رأَيتُ، يا ابن أَبي عقـ ـ ـ ـيلٍ
ورائي منْكَ أَظْفاراً ونَابـ ـا[81]

ومما يؤكد ما ذهبت إليه بشأن مدحه للحجاج أنه عاد ونقض ما مدحه به فوصف ما كان عليه من بطش وظلم وغلظة، وما أنزله بأهل العراق، وما عانوه في أثناء حكمه، وكيف أنهم أحسوا بالخلاص والفرح بعد موته، وذلك في مدائحه لسليمان بن عبد الملك.[82]

ولما وقع الفرزدق بين يدي مالك بن المنذر بن جارود صاحب شرطة البصرة الذي وضعه في السجن بأمر من خالد القسري مدحه بقصائد كثيرة، واستعطفه استعطافا كبيرا واستجار بقبر أبيه، وتذلل له بوصف معاناته ومخاوفه من السجن، وأشار إلى أنه كان متقدما بالسن لا يجوز تقييده بالأغلال الثقيلة.[83]

وقد يتنصل مما قاله في خصمه من هجاء، فيمدحه بعدما هجاه خوفا من غياهب السجن، وما لاقاه فيه كما فعل مع خالد القسري. قال يعتذر له ويمدح النهر المبارك الذي سجن بسبب انتقاده لكثرة إنفاق خالد على شقّه:

إن المبارك كاسمه يسقَى بِـ ـ ـ ـه
حرثُ الطعامِ ولاَحقُ الجبـ ـارِ
يا دجلَ كُنْت عزيزةً فيما مضـ ـى،
فَلَقَد أَصابكِ خَالِد بصغَـ ـ ـارِ
يجتَاز دجلَةَ لا يخَافُ خياضهـ ـ ـا
من كان يقْطَعها علَى الْمعبارِ[84]

إن هول ما رآه الفرزدق في السجن وخوفه من أن تطول مدة إقامته به دفعه إلى التنصل مما قاله من هجاء خالد سابقا، بل قام بمدحه، وبيان مزايا نهره المبارك.

أما الزمن، فقد قاوم الفرزدق خوفه منه ببعث الماضي، وتذكّر أيام الشباب، وما كان له من صولات وجولات فيها،

ولاسيما في علاقته مع المرأة؛ فقد ارتبط الشباب عنده بها كما ارتبط الشيب بها من قبل. قال:

رآني الغَانياتُ فقُلْن: هـ ـ ـ ـ ـ ذا
أبونَا جاء من تَحت السـ ـ ـلامِ
فَإن يضحكْن أو يسخَرن منـ ـ ـي
فإني كُنْتُ مرقاص الخـ ـ ـدامِ
ولو جداتهن سألن عنّـ ـ ـ ـ ـ ـي
رَجعن إلي أضعافَ السـ ـلامِ[85]

إنه يدفع الحاضر المصبوغ بلون الشيب، وسخرية النساء منه بوصف ما كان عليه في الماضي (مرقاص الخدام) كناية عن نشاطه وشبابه، وتأثيره في النساء طالبا منهن سؤال جداتهن عن ماضيه، ولا أدري إن كانت هذا السخرية نتيجة لمحاولته التصابي معهن إذ ليس من عادة المرأة أو غيرها السخرية من كبير السن في الثقافة العربية، بل على العكس من ذلك، فقد كان وما زال يحظى بالاحترام والرأفة، لكن ما عرف عن شخصية الفرزدق يوحي بأنه ربما حاول العبث والتصابي معهن، فقوبل بالسخرية والتضاحك من شيخوخته، هذا إذا ما أخذنا شعره السابق من باب الحقيقة.

لقد كان تذكّر الشاعر للون شَعره الأسود كناية عن الشباب الذي رحله الشيب، وحلّ مكانه في إشارة لدفع عجز الحاضر وآلامه بتذكّر الماضي الجميل المفعم بالحيوية والقوة والنشاط كما في قوله:

إن يظْعنِ الشيب الشباب فقد تُـ ـَرى
له لِمةٌ لم يرم عنْها غُرابهـ ـ ـا
لَئِن أَصبحت نَفْسي تُجِيب لطال ما
أَقَرتْ بعيني أن يغيم سحابهـ ـا
وأصبحتُ مثْلَ النسرِ أَصبح واقعاً
وأَفْنَاه من كر الليالي ذَهابهـ ـا[86]

بالنظر إلى العناصر الأسطورية الراسبة في الثقافة العربية، فقد فسر (ثيودور جاستر) في كتابه ثيسبس (Thispis) الطقوس والأسطورة والدراما في الشرق الأدنى القديم بناء القصيدة الطقوسي، فرآها تمثّل الآلية التي يسعى المجتمع من خلالها إلى إعادة بعث حياته، وضمان ديمومته إذ يرى" أن أنشطة الشعائر الموسمية تقع في قسمين يمكن أن نسميهما: طقوس التفريغ التي ترمز إلى أفول الحياة والحيوية في نهاية كل دورة حياة، وطقوس الملء التي تصور بعث الحيوية الذي يتبع بداية الدورة الجديدة، وعلى ضوء هذا التفسير، فإنه يرى الأطلال وقطع الوصل والفراق، والشكوى من الشيب تعبيرا عن شعيرة الإماتة".[87]

أما الخوف من الموت، فقد قاومه بالتأسي بمن مات قبله، وتقبل فكرة أن الموت حقّ يصيب الناس جميعا. قال:

سلَوتُ عنِ الدهرِ الذي كان معجِباً
ومثْلُ الذي قَد كان من دهرِنَا يسلي
وأَيقَنْتُ أَني لاَ محالَةَ مـ ـ ـ ـ ـيتٌ
فَمتبِع آثَار من قَد خَلاَ قَبلـ ـ ـ ـي
وإني الذي لا بد أَن سيصيبـ ـ ـ ـه
حِمام المنَايا من وفَاة ومن قَتْـ ـلِ
فَما أَنَا بالباقي ولاَ الدهر فَاعلَمـ ـي
بِراضٍ بِما قَد كان أَذْهب من عقْلِي
ولاَ منْصفي يوماً فَأُدرِك عنْـ ـده
مظَالِمه عنْدي ولاَ تَارِكاً أَكْلـ ـي
وأَين أَخلائي الذين عهدتُهـ ـ ـم
وكُلهم قَد كان في غبطَة مثْلـ ـي
دعتْهم مقَادير فَأَصبحتُ بعدهـ ـم
بقيةَ دهرٍ لَيس يسبقُ بِالذحـ ـل
بلَوتُ من الدهرِ الذي فيه واعظ
وجاريتُ بِالنعمى وطَالَبتُ بالتبل
وجربتُ عنْد المضلعات فَلَم أَكُن
ضريع زمان لاَ أُمر ولاَ أُحلي[88]

ومن الأساليب الأخرى التي قاوم بها الفرزدق خوفه من الموت: الرجوع إلى ا ، وإعلان توبته عما بدر منه في حياته كما في قصيدته التي هجا فيها إبليس التي مر الحديث عنها في موضع سابق من هذا البحث.

الخاتمـة

وهكذا فقد ملأ الخوف حياة الفرزدق وقلبه منذ أيام شبابه الأولى؛ أي منذ تجربته الأولى مع زياد بن أبي سفيان، فعانى سنوات من المطاردة والخوف إلى أن مات زياد، فعاد إلى وطنه العراق منتهجا سياسة جديدة في مهادنة السلطة السياسية من الولاة خاصة، الذين تواتروا على العراق مثل الحجاج، والحكم بن أيوب الثقفي، فقد سارع إلى مدحهما، وتقديم كل ألوان الطاعة والتذلل لهما، ولكنه عاد إلى سيرته الأولى بعد ذلك في انتقاد السلطان، فانتقد سياسة خالد القسري المالية على إثر ضغائن قبلية كانت بينهما، وهجا النهر الذي شقّه المسمى بالمبارك فسجنه، فسارع إلى الاعتذار عما بدر منه، بل تنصل من هجائه إياه، وتوسط عند الخليفة آنذاك

هشام بن عبد الملك معتذرا أشد الاعتذار، ومدحه حتى أخرجه من السجن، كل ذلك يشير إلى نجاح سياسة الترهيب والتخويف التي كانت تنتهجها السلطة السياسية في ترهيب الآخر وتخويفه على إثر أي خلاف بينهما، مما كان يعمق سياسة التفرد، ومصادرة حرية الرأي.

أما الزمن، فقد كان تأثيره في الشاعر قليلا؛ ربما لأنه كان منشغلا بقبليته، أو لأنه كان ضعيف العقيدة، فلم يأبه كثيرا بأمر الموت، وما قد يواجهه بعده، ومع ذلك فقد اشتكى من الشيب وكبر السن والهرم ولاسيما في الجانب المتعلق بالمرأة، فصورها نافرة من الشيب أبدا واصفا معاناته في ظل هذا الموقف.

وإذا كانت السلطة السياسية قد مارست الإرهاب السياسي في هذا العصر بصورة كبيرة على الشاعر وغيره من أفراد الرعية، فإنّه قد مارس هو الآخر ألوانا من الإرهاب البلاغي من خلال الفن الشعري بهجاء الآخر، والتعرض لأعراض الناس، وتهديدهم على إثر أي خلاف يحدث بينهم، وفي أحيان كثيرة دونما خلاف، ولاسيما في المجتمع العراقي حيث استعرت نار القبلية، فكان المجتمع يموج في بحر متلاطم الأمواج من الخلافات والصراعات القبلية، وما يتبعها من حروب عسكرية تمثّلت في كثرة الثورات والفتن، وأدبية تمثلت في كثرة الفخر والهجاء الذي ظهر واضحا في النقائض، ولعل ذلك كان عائدا إلى أن مدينتي العراق الرئيسيتين البصرة والكوفة خُططتا تخطيطا قبليا منذ نشأتهما في زمن عمر ابن الخطاب مما أشعل نار الخلاف والتنافس القبلي بينهما.

لم يقف الفرزدق مكتوف اليدين إزاء خوفه في مراحل حياته المختلفة فقد أوجد آليات مختلفة لمقاومته من أهمها تحدي خصمه بالهرب، ومن ثم هجائه له، ولاسيما في مراحل حياته الأولى. أما في المراحل التالية فقد انتهج نهجا آخر فنراه لجأ إلى مديح الخصم والاعتذارله، والتذلل أمامه، أما مخاوفه من الزمن، فقد قاومها ببعث الماضي، وتذكّر ما فيه من ذكريات جميلة مفعمة بالحيوية والنشاط، وأما الموت، فقد قاومه بالتأسي بمن مات قبله، وإعلان الندم على ما اقترف من ذنوب، والتوبة من العودة إليها.

الهوامـش

(1) الصافر: نوع من أنواع الطيور.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 547.
(3) انظر القصيدة في ديوانه، الفرزدق، (همام بن غالب).
(4) تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 212.
(5) انظر تفاصيل ذلك في كتاب: تاريخ الأمم والملوك، مج3، ص: 212 وما بعدها.
(6) ديوانه. ص:542.
(7) انظر النابغة الذبياني، (ديوانه)، ص:14 وما بعدها وص: 25 وما بعدها.
(8) المصدر السابق، ص: 542.
(9) نفسه، ص: 373.
(10) نفسه، ص: 400.
(11) نفسه، ص: 227. رحالة: شعر اللبدة. الجسد: المصبوغ بالزعفران، ويقصد بها الدم. المؤجد: الموثق. الزمازم: الهمهمة. الجروة: العزم على الأمر. المخرم: المهلك.
(12) نفسه، ص: 168. المخارم: الواحد مخرم، وتعني المنفذ بالجبل.
(13) انظر تفاصيل القصة في كتاب الفحام، الفرزدق شاعر النقائض، ص: 123 وما بعدها.
(14) التشبيه الدائري مصطلح أطلقه الدكتور عبد القادر الرباعي على التركيب الذي يبدأ بـ (ما) والمنتهي بـ (أفعل من) وهو يعتمد على المقارنة بين عنصرين أحدهما المشبه وثانيهما المشبه به. الرباعي، الطير في الشعر الجاهلي، ص: 193.
(15) الفرزدق، شاعر النقائض، ص: 124.
(16) الدينوري، الشعر والشعراء، ج1، ص: 382. وكذلك انظر الأغاني،ج21، ص: 276.
(17) ديوانه، ص: 169. عوان: المرأة الثيب. الأداهم: القيود.المحدرجة: السياط المحكمة الفتل.
(18) المصدر السابق، ص:169. فزعت: لجأت. الحرف: الناقة. استعراضها: اجتيازها. الضفرا: المفتولة. حيزوما:وسط الصدر. الضفرا. الموماة: الفلاة. الغياطل: مفردها غيطل: وهو من الليل التجاج سواده.
(19) ستيتكيفيتش، أدب السياسة وسياسة الأدب، ص: 75.
(20) عليمات، جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا، ص: 91.
(21) ديوانه، ص: 511.
(22) الدينوري، الشعر والشعراء، ص: 290.

(23) انظر مثلا ديوانه ص:424.
(24) الفرزدق، شاعر النقائض، ص: 175 ولم يذكر مصدره.
(25) ديوانه، ص: 474.
(26) المصدر السابق، ص: 222. مستحير: ثابت. عساكره: جيوش الظلام.
(27) نفسه، ص: 410.
(28) نفسه، ص: 5.
(29) انظر تفاصيل ذلك في كتاب نصير، صورة المرأة في الشعر الأموي، ص: 293 وما بعدها.
(30) ديوانه، 28.
(31) المصدر السابق، 415. الضوانك: مفردها ضانكة، وهي المرأة التي أصيبت بضيق.
(32) نفسه، ص: 259. بزويرا: بكاملها.
(33) انظر ديوانه مثلا ص: 236 و259.
(34) الصايغ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، ص: 65.
(35) جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا. ص: 172.
(36) المحجوب، قضية الزمن في الشعر العربي، ص: 8 .
(37) ديوانه، ص: 25.
(38) المصدر السابق، ص: 41.
(39) نفسه، ص: 323.
(40) نفسه، ص: 339.
(41) نفسه، ص: 45. ينرن: ينفرن. الإثآر: مخالسة الطرف إليهن حينا بعد حين. النوابي: المتجافيات.
(42) قصة الفرزدق مع نوار، وزواجه منها، باتت معروفة، فقد رفضته ليس بسبب كبر سنه وغزو الشيب مفرقه -كما يدعي- ولكن لأنه تحايل عليها في الزواج منها بعدما أوكلت إليه أمر زواجها من شخص تقدم لخطبتها، وذلك لقرابته منها، فخدعها، وعقد قرانه عليها بدلا من ذلك الشخص، فنافرته، وطلبت الطلاق منه، واستمرت على ذلك إلى أن ظفرت به في أخريات عمرها، وأشهدت عليه الحسن البصري خوفا من أن يرجع عنه، وتجمع الأخبار أن كراهيتها له كانت لسوء خلقه، وخداعه لها في أمر زواجه منها، فقد كانت تكرر قولها له: ويحك! أنت تعلم أنك إنما تزوجت بي ضغطة وعلى خدعة. انظر تفاصيل القصة في الأغاني، ج: 21، ص: 286 وما بعدها.
(43) ديوانه، ص: 75.
(44) المصدر السابق، ص:118.
(45) نفسه، ص: 28.
(46) نفسه، ص: 137.
(47) نفسه، ص: 236.
(48) نفسه، ص: 578.
(49) نفسه، ص: 161.
(50) نفسه، ص: 399.
(51) نفسه، ص: 540.
(52) المانع، الفرزدق وإبليس، مجلة فصول، مج14، العدد الثاني 1995.
(53) الأغاني، ج21، ص: 416.
(54) المصدر السابق، ج21، ص: 287.
(55) نفسه، ج21، ص: 291.
(56) نفسه، ج21، ص: 290.
(57) نفسه، ج21، ص:287.
(58) ديوانه، ص: 80.
(59) انظر الخبر والشعر مع اختلاف طفيف في الأغاني، ج21، ص:353.
(60) ديوانه، ص:14.
(61) المصدر السابق، ص: 159.
(62) انظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج1، ص: 46.
(63) الأغاني، ج21، ص: 297.
(64) المصدر السابق، ج21، ص: 397.
(65) انظر تفاصيل ذلك مع الشعر في الأغاني، ج21، ص:267.
(66) ديوانه، ص: 318.
(67) انظر ديوانه، ص:212 وما بعدها.
(68) انظر الخبر مع شعر الأخطل فيها في ديوانه ج2، ص: 593. والأغاني، ج8، ص: 304.
(69) الأخيلية، ديوانها، ص: 103.
(70) انظر ديوانه، ص: 487.
(71) المصدر السابق، ص: 133.
(72) نفسه، ص: 422.
(73) نفسه، ص:133. انظر الهامش.
(74) نفسه، ص: 180.
(75) نفسه، ص: 548.
(76) نفسه، 543. تخال: تأكل. البرير: ثمر الآراك.
(77) الأغاني، ج21، ص: 310.
(78) ديوانه، ص: 301.
(79) أدب السياسة وسياسة الأدب، ص:56 وما بعدها.
(80) المصدر السابق. ص: 60.
(81) ديوانه، ص: 77. صين استان: اسم موضع بالكوفة، وقيل قرب الإسكندرية. الهجران: مدينتان متقابلتان في رأس جبل حصين.

(82) انظر مثلا ديوانه، ص: 424.
(83) انظر ديوانه، ص:486.
(84) المصدر السابق، ص: 237. الخياض: الخوض. المعبار: أراد السفن الصغيرة التي كان يعبر بها النهر.
(85) نفسه، ص: 598. السلام: الحجارة التي تنضد فوق القبر.
الخدام: الخلخال.
(86) نفسه، ص: 47.
(87) أدب السياسة وسياسة الأدب، ص: 61.
(88) ديوانه، ص: 480. التبل: الثأر أو العداوة. المضلعات: المعضلات: الأمور العسيرة.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979.

الأخطل، غياث بن غوث التغلبي، شعر الأخطل، تحقيق: فخر الدين قباوة، 1979، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الأخيلية، ليلى الأخيلية، ديوانها، جمع وتحقيق خليل إبراهيم العطية وجليل العطية، 1967، دار الجمهورية. بغداد.

الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب، القاهرة، 1963.

أيزابرجر، آرثر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطاويسي، 2003، القاهرة.

بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، 1980، دار المعارف، القاهرة.

التنوخي، القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة مرغليوث، لندن، 1921.

الجمحي، محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، 1990، مطبعة المدني، القاهرة.

حمود، محمد، 1991، الفرزدق، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.

خليل، إبراهيم، 2002، في النقد والنقد الألسني، دار الكندي، إربد، الأردن.

ذياب، محمد حافظ، 2004، ندوة في النقد الثقافي، فصول، العدد 63.

الرباعي، عبد القادر، 2005، ثقافة النقد ونقد الثقافة، عالم الفكر، العدد 3، المجلد33.

الرباعي، عبد القادر، 1999، جماليات المعنى الشعري، التشكيل والتأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

الرباعي، عبد القادر، 1984، الصورة الفنية في النقد الشعري، دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم، الرياض.

الرويلي، ميجان، وسعد البازعي، 2001، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب.

الصايغ، عبد الإله، 1983، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، دار الرشيد للنشر، العراق.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

العرجي، ديوانه، شرح وتحقيق خضر الطائي، ورشيد العبيدي، 1972، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد.

عليمات، يوسف، 2004، جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

عماد الدين، أبو الفداء، تاريخ أبي الفداء، علق عليه ووضع حواشيه محمد ديوب، 1997، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

الغذامي، عبد ا ، 1985، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة.

الغذامي، عبد ا ، 2002، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

الفحام، شاكر، 1977، الفرزدق شاعر النقائض، دمشق.

الفرزدق، همام بن غالب، ديوانه، شرح: علي فاعور، 1978، دار الكتب العلمية، بيروت.

المانع، سعاد، 1995، الفرزدق وإبليس، مجلة فصول، مج 14، العدد الثاني.

متز، آدم، الحضارة الإسلامية، ترجمة:محمد عبد الهادي أبو ريدة، 1967، دار الكتاب العربي، بيروت.

المحجوب، فاطمة، 1980، قضية الزمن في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة.

النابغة الذبياني، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت.

نصير، أمل، صورة المرأة في الشعر الأموي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

نصير، أمل، 2005، العلاقات الأسرية في شعر العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الإسراء للطباعة والنشر، عمان، الأردن.

يزيد بن معاوية، ديوانه، جمع وتحقيق صلاح المنجد، 1982، دار الكتاب الجديد، بيروت.

اليوسف، إسماعيل، 1984، الفرزدق، أخباره ونماذج من شعره، دار الكتاب العربي، دمشق.

The Fear in (Al- Furazdaq Poetry)

*Amal T. Nseer**

ABSTRACT

In this research, I attempt to discuss the fear' in the poetry of the Ummayad poet al-Furazdaq poetry. In the introduction.The paper consists of four section; the first focuses on the poet's political fear, the second focuses on the poet's fear of time, the third focuses on fear of the poet and what the poet says and the fourth describes the various techniques used by al-Furazdaq to resist fear.

Al-Furazdaq clearly lived in a state of fear in the various stages of his life. His political fear was caused by the political strategies of the time such as the marginalisation of the other and restrictions on freedom of speech. In his poetry, Al-Furazdaq resists the fear of politics through employing culture. He used strategies of imposing the self and magnifying it in addition to threatening the other through marginalisation.

The poet's fear of time was represented mainly with aging and death. Al-Furazdaq seemed more occupied with politics than matters of death and perhaps that is because he was more concerned with tribal matters rather than religion.

Keywords: Arabic poetry, Umayyad poetry, Culture of fear, Al-Furazdaq.

* Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan. Received on 11/5/2006 and Accepted for Publication on 22/8/2006.

46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88